دلالات مصطلح الاغتراب في الفكر العربي

د.لزهر مساعدية

المركز الجامعي ميلة

ملخص:

على الرغم من أن مفهوم الاغتراب من المفاهيم الفكرية الحديثة إلا أن جذوره تمتد إلى عصور ضاربة في القدم، ويتجلى ذلك في الفلسفات والكتابات اللاهوتية القديمة أين يعتبر آدم أول مغترب، حين هبط إلى الأرض وأغترب عن موطنه الأصلي (الجنة) ومنذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا والإنسان يعاني من هذه الظاهرة في شقها السلبي، ويستفيد منها في شقها الإيجابي.

وقد أهتم بموضوع الاغتراب عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين حتى أصبح يحتل حيزا واسعا من دراساتهم.

لذلك فالخوض في معرفة دلالات مصطلح الاغتراب يعد مهمة شاقة؛ نظرا لطبيعة المصطلح الزئبقية ، ذلك ما استلزم تعدد المعاني التي استخدم بها.

لذلك سوف يسعى ذا المقال إلى محاولة تبين دلالات مصطلح الاغتراب في الفكر العربي

1- مفهـــــوم الاغتراب :

أ – لغـــــة :

جاء في لسان العرب في مادة " غَرَبَ "[1] :غربت الشمسُ تغربُ غروباً : غابت في المغرب، والغَرْبُ : الذهاب والتنحي عن الناس ...والغَرْبَةُ والغَرْبُ: النوى والبُعد ...وشَأوٌ مُغَرِّبٌ ومُغَرَّبٌ :بعيد...والتغريبُ : النفي عن البلد وَغَرَبَ أي بَعُدَ ويُقالُ أغْرُب عني أي تباعد، ومنه الحديث أنه أمر بتغريب الزاني، والتغريبُ : النفي عن البلد الذي وقعت الجَنَاية فيه...و التغرُّبُ : البُعدُ، وفي الحديث أن رجلا قال له : إن إمرأتي لا تردُ يَدَ لامسٍ فقال : غرّبها أي أبعدها؛ يريد الطّلاق، والغُرْبَةُ والغُرْبُ: التروح عن الوطن والاغتراب قال المتلمس:

ألا أبلغا أفناء سعد بن مالـــك رسالة من قد صار في الغرب جانبـــه.

والاغتراب والتغرُّبُ كذلك ...ورجل غرُبٌ وغريبٌ : بعيد عن وطنه؛ الجمع غرباء، والأنثى غريبة ...وفي الحديث: " إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعودُ غريبًا كما بدأ، فطوبي للغرباء " واغترب الرجل: نكح في الغرائب، وتزوَّج إلى غير أقاربه...والاغتراب: افتعال من الغربة...

ورجلُ غَريب : ليس من القوم، وتثنيتهُ غُرُبَان، قال طهمان بن عمرو الكلابي :

وإنّي والعبسيَّ في أرض مَذْحَج غريبان، شتَّى الديـــار مختلفـــــــــان

وما كان غضّ الطرف منَّا سَجيَّة ولكننا في مذْحَـــجٍ غُرُبـــــــــــان.

وأغرب الرجل: جاء بشيء غريب...وأغَرَبَ الفَرِسُ في جريه : وهو غاية الإكثار، والغربُ والغربَةُ : الحدَّةُ ؛ويُقَالُ لِحَدِّ السّيف :غَرْبٌ ...واستغرب في الضُّحِكِ واستُغربَ : أكْثِرَ منه ...والغَرْبُ : الدّلو العظيمة ...و الخمر...والغُرُوبُ الدمُّوعُ حينَ تخرجُ من العين ...والغَرَبُ : الخَمْرُ ... والغَرْبُ : الذهب، وقيل الفضّة ...والغَرَبُ : ضَربٌ من الشجر ...

جاء في تاج العروس [2] : الغُرْبُ : التروح عن الوطنَ كالغُرْبَة (بالضّمّ)،والإغرابُ والتغرُّبُ أيضًا: البُعْدُ، تقول منه: تَغَرَّبَ واغْتَرَبَ ...والإغْرابُ : الإمعان في البلاد، يُقال: أغْرَبَ القوم : إنتووا، وأغْرَبَ في الأرض إذا أمعن فيها، كالتغريب، قال ذِو الرمّة

فَرَاحَ منصلِتًا يَحْدُو حلائلـــــه أدنى تقاذفـــه التَّغْريبُ و الخَبَـــبُ

واغْتَرَبَ الرَّجُلُ: نَكَحَ في الغرائب، وتزوّجَ في غير الأقارب...والاغترابُ :افتعالٌ من الغربة ...

وجاء في محيط المحيط [3] :تَغَرَّبَ الرَّجُلُ : بعد وأتى الغربة ونَزَحَ عن الوطن،وزيد أتى من قبل المغرب، وأغْتَرَبَ الرّجل : بعد ونزح عن الوطن وزيد تزوج في غير الأقارب،والغُربة : التروح عن الوطن ...ويقال : الغربة عن الحال : عن حقيقة التعود فيه ...والغريب البعيد عن وطنه.

وجاء في المنجد في اللغة والأعلام: [4] تغرّب: نزح عن الوطن...اغْتَرَبَ: نزح عن الوطن ... واغْتَرَبَ : تزوج في غير الأقارب ...استغرب الشيء وجده أو أعَدَّه غريبًا...استغرَبَ واستغْرِب في الضّحك : بالَغَ فيه، استغرب الدمّع : سَالَ .

يتضح مما ورد في المعاجم السابقة بأنه كاد أن يجمع واضعوها – مؤلفوها – على أن الاغتراب افتعال من الغربة وأهم معانيه : التروح عن الوطن ومفارقته، والبعد والنوى، والذهاب والتنحي عن الناس والانفصال عنهم بدوافع إرادية أو بدوافع إجبارية .

ب – اصطلاحا :

ب-1)عند القدمـــــاء :

حظي مفهوم الاغتراب باهتمام العلماء والفقهاء العرب المسلمين ،ولعل أهم من خصه بالدراسة – بعد أن عاشه – أبو حيان التوحيدي ، والذي استمد آراءه من تجربته الحياتية، أين أمضاها بائسا ، فقيرا ، منبوذا ،جاب البلدان، وقصد الأمراء و لم يحظ بطائل فحقد على كل الناس وأراد الانتقام منهم ،كما أقدم على إحراق كتب له، معللا ذلك في رسالة أرسلها إلى صديق له كان قد لامه عن فعلته تلك[5] ، ومما جاء في الرسالة ما يلي : " وإني جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ، و لمد الجاه عندهم ،فحرمت ذلك كله ...ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا وصاحبا قريبا، وتابعا أديبا ورئيسا منيبا، فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها ...وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة، فما صح لي من أحدهم وداد ؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة... إلى بيع الدين والمروءة...وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في القلب صاحبه الألم. " [6]

يتضح من الرسالة اغتراب أبي حيان اغترابا شديدا ؛ إذ صار ينظر لمن حوله من الناس بأنه لم يبق له منهم صديقا ولا حبيبا، نظرا لأنه لم يجديد المساعدة من أحد في أوقات كانت عليه جد عصبية، وهذا ما جعله يحقد على جميع الناس فعقد العزم على ألا يستفيدوا من آثاره، وقام بحرقها وهذا يعكس مدى انفصاله عن المجتمع وتنحيه عنه، وهذه الرسالة قد أشارت إلى اغترابه الشخصي أما فيما يخص موضوع الإغتراب وما قام به من دراسة حـــوله، فقد ترك رسالة عن الغريب والغربة في كتابه " الإشارات الإلهية "، وسنورد أجزاء منها توضح رأيه في الموضوع، قال : "سألتني – رفق الله بك، وعطف علي قلبك – أن أذكر لك الغريب ومحنه وأصف لك الغربة وعجائبها ...كيف أخفض الكلام الآن وأرفع وما الذي أقول وأصنع و لماذا أصبر وعلى ماذا أجزع ؟ وعلى العلات التي وصفتها والعورات التي سترتها أقول :

إن الغريب بحيث مـــــا حطت ركائبه ذليـــــــل

ويد الغريب قصيـــــــرة ولسانه أبدا كليـــــــــل

والناس ينصر بعضهـــــم بعضا، وناصـــره قليـــل

وقال آخر :

وما جزعا من خشية البين أخضلت دموعي، ولكن الغريب غريب

يا هذا : هذا وصف غريب نأى عن وطن بني بالماء والطين، وبعد عن ألاف له عهدهم الخشونة واللين، ولعله عاقرهم الكأس بين الغدران والرياض، واجتلى بعينه محاسن الحدق المراض ثم كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض، فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه ؟ وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان ؟ قد علاه الشحوب وهو في كن، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شن، إن نطق نطق خزيان منقطعا، وإن سكت سكت

حيران مرتدعا، وإن قرب قرب خاضعا، وإن بعد بعد خاشعا وإن ظهر ظهر ذليلا، وإن توارى توارى عليلا، وإن طلب طلب واليأس غالب عليه، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد إليه، وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفكر، وإن أمسى أمسى منتهب السر من هواتك الستر، وإن قال قال هائبا و إن سكت سكت خائبا، قد أكله الخمول ومصه الذبول، وحالفه النحول، لا يتمنى إلا على بعض بني جنسه، حتى يفضي إليه بكامنات نفسه ويتعلل برؤية طلعته، ويتذكر بمشاهدته قديم لوعته، فينثر الدموع على صحن خده، طالبا للراحة من كده[7] .

وقد قيل : الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول: بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عند الرقيب، بل الغريب من حاباه التشريب، بل الغريب من يؤدي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب، الغريب من غربته شمس جماله، واغترب عن حبيبه وعذاله، وأغرب في أقواله وأفعاله وغرب في إدباره وإقباله، واستغرب في طمره وسر باله .

يا هذا : الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة، ودل عنوانه على الفتنة عقيب الفتنة وبانت حقيقته فيه في الفينة حد الفينة، الغريب من إن حضر كان غائبا، و إن غاب كان حاضرا الغريب من رأيته لم تعرفه وإن لم تره لم تستعرفه، أما سمعت القائل حين قال :

بم التعلل لا أهل ولا وطـــن ولا نديم ولا كأس ولا سكـــن

هذا وصف رجل لحقته الغربة، فتمنى أهلا يأنس بهم، ووطنا يأوى إليه ونديما يحل عقد سره معه، وكأسا ينتشي منها، وسكنا يتوادع عنده، فأما وصف الغريب الذي إكتنفه الأحزان من كل جانب، واشتملت عليه الأشجان في كل حاضر وغائب، وتحكمت فيه الأيام من كل جاء وذاهب، واستغرقته الحسرات على كل فائت وآيب، وشتته الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب الغريب الذي لا اسم له فيذكر، ولا رسم له فيشهر، ولا طي له فينشر، ولا عذر له فيعذر، ولا ذنب له ليغفر، ولا عيب عنده فيستر، وفي الجملة أتت عليه أحكام المصائب والنوائب، وحطته بأيدي العواتب عن المراتب، فوصفه يحفى دونه القلم، ويفنى من ورائه القرطاس، ويشل عن تحبيره اللفظ .

هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه، و لم يتزعزع عن مهب أنفاسه، وأغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدا في محل قربه، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود، ويغمض عن المشهود، ويفضي عن المعهود، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود ورفد مرفود وركن موطود وحد غير محدود[8] .

يا هذا : الغريب من إذا ذكر الحق هجر، وإذا دعا إلى الحق زجر، الغريب من إذا أسند كذب، وإذا تظاهر عذب، الغريب من إذا امتار لم يمر، وإذا قعد لم يزر، يا رحمتا للغريب، طال سفره من غير قدوم، وطال بلاؤه من غير ذنب، واشتد ضرره من غير تقصير، وعظم عناؤه من غير جدوى، الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله، الغريب من إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم أكمده الحزن واللهف، الغريب من إذا أقبل لم يوسع له، وإذا أعرض لم يسأل عنه، والغريب من إذا سأل لم يعط، وإن سكت لم يبدأ، الغريب من إذا عطس لم يشمت، وإن مرض لم يتفقد، الغريب من إن زار أغلق دونه الباب، وإذا أستأذن لم يرفع له حجاب، الغريب من إذا نادى لم يجب، وإن هادى لم يجب، اللهم إذا قد أصبحنا غرباء بين خلقك، فأنسنا في فنائك، اللهم و أمسينا مهجورين عندهم، فصلنا بجنابك .

يا هذا : الغريب في الجملة من كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهـــــف، وغداؤه حزن،وعشاؤه شجن، ورداؤه ظنن،وجميعه فتن...وسره علن، وخوفه وطن ...الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه .

أيها السائل عن الغريب ...إذا أردت الحق فأنس ما سواه، وإذا أردت قربه، فابعد عن كل ما عداه، وإذا أردت المكانة عنده، فدع ما تهواه لما تراه..." [9]

هذا رأي أحد أكبر الأدباء و المفكرين العرب في الاغتراب، ويتضح في بداية الرسالة وكذا نهايتها بأنها عبارة عن إجابة لسائل عن الغريب والغربة، وقد وصف أبو حيان التوحيدي الغربة والغريب باستفاضة، ومن أراد أن يتحدث عن الغريب والغربة بعد حديثه هذا فليستح، وقد نتج حديثه هذا عن اغترابه من خلال تجربته الحياتية – كما ذكرنا – فقد اغترب في وطنه ثم اغترب عنه وانتهى إلى الاغتراب عن ذاته والتصوف باعتزاله الحياة والناس والتوجه إلى الله، وقد تحدث التوحيدي في هذه الرسالة عن الاغتراب في وطنه، والاغتراب عن وطنه ثم الاغتراب عن الذات (التصوف)،ورأى بأن الاغتراب عن المجتمع هو أشد أنواع الاغتراب قساوة وإيلاما وهذا مما يدل على أن هذا المفكر قد عانى-في حياته- الويلات .

ويبدو أن التوحيدي قد وافق في آرائه بعض المحدثين الغربيين في نظرتهم للحياة والاغتراب فيها، ففي قوله مثلا : " قيل : الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب " وكأنه في قوله هذا يوافق الوجودي الألماني كيركيجورد الذي رفض الزواج بالتي أحبها فكانت نظرته هذه تشبه نظرة التوحيدي بالإضافة إلى دعوته إلى الاعتزال عن الحشد " المجتمع والتي تبناها أيضا التوحيدي .

بالإضافة إلى آراء التوحيدي في موضوع الاغتراب فإن الجاحظ أيضا تحدث في هذا الموضوع، ومما قاله هذا التشبيه الرائع للغريب عن وطنه : " الغريب النائي عن بلده، المتنحي عن أهله، كالثور الناد عن وطنه الذي هو لكل سبع قنيصة، ولكل رام دريئة ..." [10]، فهو يرى أن الغريب عن وطنه يكون فريسة لكل المصائب والنكبات.

وبالإضافة إلى اهتمام الجاحظ والتوحيدي بمفهوم الاغتراب فإن جمهور فقهاء الإسلام لم يهملوه، إذ اهتموا به وتحدثوا عنه وأوضحوه من وجهة النظر الإسلامية، فقسموه إلى درجات وأنواع هي :

-اغتراب الأوطـــان :

ويتميز باشتراك الناس جميعهم فيه، فكلهم في الدار الدنيـــا غـــرباء ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية بأن هذا الاغتراب ليس مذموما، كما ليس محمودا أيضا وقال فيه:

وحي على جنات عدن فإنهـــــــا منازلك الأولى وفيها المخيـــــــــــم
ولكننا سبي العدو، فهل تـــــــرى نعود إلى أوطاننا ونسلـــــــــــم ؟
وأي اغتراب فوق غربتنا التـــــي لها أضحت الأعداء فينا تحكـــــــم ؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نـــــأى وشطت به أوطانه ليس ينعـــــــم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعـــة من العمر إلا بعد ما يتألـــــــــم[11].

كما نبه الإسلام إلى أن هذه الدنيا غير قارة، إنما هي آيلة إلى الزوال فهي ممر لا مقر، قال تعالى : " يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار " [12]، وقال الرسول – ص- لعبد الله بن عمر : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" [13]، ويقول في الصدد أيضا – الإمام الفقيه ابن رجب الحنبلي- :" المؤمن في الدنيا غريب لأن أباه كان في دار البقاء،ثم خرج منها،فهمه الرجوع إلى مسكنه الأول فهو أبدا يحن إلى وطنه الذي أخرج منه ."[14]

فالإنسان بهذه النظرة غريب دوما ما لم يعد إلى موطنه الأول (الجنة) التي أخرج منها أبوه آدم – عليه السلام – قسرا، كما يرى الفقيه ابن رجب الحنبلي أن الناس في هذه الدنيا ينقسمون إلى قسمين :

- قسم اهتم بزينة الدنيا ومتاعها، فاغتر بها وتناسى فضل الله عليه، فلا يشعر أفراده بالاغتراب في هذه الدنيا؛ لا انغماسهم في ملذاتها وفنائهم في حبها وعشقها .

- وقسم آمن بالله و لم يتناس فضله عليه فيشعر أفراده بالاغتراب في هذه الدنيا؛ فهم في شوق دائم إلى موطنهم الأصلي – الجنة – لذا نجد الهم والحزن يسيطر على أكثرهم [15] .

-اغتـــــراب الحـــــــال :

وصف أحد شيوخ الإسلام المغترب من هذه الدرجة بأنه : " من الغرباء الذين طوبي لهم[16] ، و هو رجل صالح في زمان فاسد بين قوم فاسدين، أو عالم بين قوم جاهلين، أو صديق بين قوم منافقين [17] .

ومن كلامه هذا يتضح بأن غرباء الحال ثلاثة : رجل صالح بين قوم فاسدين أو رجل عالم بين قوم جاهلين أو رجل صادق بين قوم منافقين .

فاغتراب الحال بالمعنى الإسلامي هو إنعزال وانفصال الإنسان المؤمن عن الحياة الاجتماعية الزائفة بمفارقة شهواتها و محاربة شبهاتها وبدعها، وقد مدح الإسلام هذا النوع من الاغتراب كما وعد الآخذين به الأجر العظيم [18].

-اغتراب الهمـــــة :

وهو اغتراب العارفين[19]، ويعتبر أعلى درجات الاغتراب؛ لأن اغتراب الأوطان اغتراب بالأبدان، واغتراب الحال اغتراب بالأفعال والأحوال، أما هذا الاغتراب فهو اغتراب بالهمم، فالعارفون غرباء بين جميع الخلق، وقد عرف أحد الفقهاء هذا النوع من الاغتراب بقوله :

" وغربة الهمة هي غربة طلب الحق ...وهي غربة العارف ...وغربة العارف غربة الغربة، لأنه غريب الدنيا والآخرة . " [20].

ب – 2) عند المحدثيـــــــن :

أصبح الاغتراب حالة شائعة ومميزة للإنسان في العصر الحديث وقد تعددت مفاهيمه نتيجة للزخم العرفي الهائل المميز للعصر، نتيجة كذلك لتداخل الحقول المعرفية على كثرتها، يقول محمود رجب :" إن الكلمات شأنها شأن الأشخاص والشعوب لا تنشأ في فراغ وإنما تنشأ في قلب المجتمع البشري، ومن الصعب فهم دلالتها حق الفهم بمعزل عن المشكلات الإنسانية، والظروف التاريخية التي مرت بعصور من استخدموها من مفكرين وفلاسفة ... "[21]

يتضح من نص هذا الباحث بأنه لا يمكن فهم دلالة كلمة ما بفصلها عن السياق التاريخي والاجتماعي لمستخدميها من المفكرين والفلاسفة .

وسنحاول فهم دلالة كل من مصطلحي الغربة والاغتراب باستعراض آراء بعض المحدثين .

يقول الباحث عمر بوقرورة :" الغربة ظاهرة قديمة رافقت المجتمعات البشرية منذ بدء الخليقة ولكنها كانت غربة واضحة المفهوم والمصطلح، بينما اتخذت لها صورا معقدة في العصر الحديث بل صارت من أكثر المفاهيم إثارة للجدل بسبب التعاريف الكثيرة التي وضعت لها . "[22].

يشير بوقرورة في حديثه إلى صعوبة ضبط مفهوم الغربة بسبب كثرة التعاريف الموضوعة له على اختلافها – في العصر الحديث – وربما يمكن رد ذلك إلى ما سلف ذكره من تميز هذا العصر بزخم معرفي هائل، أين تداخلت فيه الحقول المعرفية، وأصبح من الصعوبة فهم دلالة مصطلح بعينه شاملا .

ويعرف الباحث يوسف عز الدين الغربة بقوله :" الغربة هي الإحساس الداخلي بأن الفرد معزول عن المجتمع الذي يعيش فيه، بما يراه بعيدا عن عاداته و تقاليده، وطراز حياته الذي ألفه في وطنه، وأحيانا في أشكال الناس ولغاتهم وعاداتهم الاجتماعية ... "[23].

يبدو من تعريف الدكتور هذا أن الغربة المقصودة هي الغربة عن الوطن وهذا ما تفسره العبارات الواردة في نهاية التعريف .

وترى الباحثة أحلام الزعيم بأن :" ... الاغتراب في أبسط معانيه هو تصدع الذات ذات الفرد، وانشقاقها نتيجة عدم تواؤمها مع المجتمع والعالم المحيط بها ..." [24].

تشير الدكتورة بحديثها هذا إلى الاغتراب عن الذات والاغتراب عن المجتمع؛ فحينما تصبح الذات غير منسجمة مع المجتمع ومع العالم المحيط بها تنشق عنهما وتنفصل ويصبح الفرد مغتربا عن ذاته المتصدعة وعن المجتمع الذي لم يتوافق معه .

ويرى الباحث علي وطفة بأن :" مفهوم الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة، وهو الحالة التي يتعرض فيها جوهر الشخصية للقسر والإكراه، فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي لنوع من التشويه والاغتصاب، تحدث عملية اغتراب وتشويه . "[25].

يحيل حديث الباحث هنا إلى نتيجة مفادها أن الاغتراب لا يمكن أن يحدث كوليد للحظة آنية، إنما تعرض الشخصية الإنسانية لأزمة ما يصيبها بتشوه، ونمو هذه الشخصية بالصورة المشوهة يستلزم اغترابها، فبداية عملية الاغتراب تكون أثناء تعرض الشخصية لأزمة حادة تشوهها .

ويرى صلاح أبو ناهية بأن " مفهوم الاغتراب يشير إلى حالة انفصال بين الفرد والموضوع وبين الفرد والأشياء المحيطة به، بين الفرد والمجتمع، علاقة الفرد بالأشياء أو بالموضوع علاقة غير سوية، فهو يعيش في مجتمعه وبين أهله في دائرة الغربة، يعيش في عالم مجرد من القيم يسوده جو كريه، لدرجة أنه لا يرفض الحياة فقط، بل يعاديها أيضا، والحالة الأخيرة تعني أن الفرد دخل إلى عالم اللاانتماء، وأنه في هذه الحالة قد يتميز بفقدان الحس وغياب الوعي . "[26].

إن الاغتراب إذا لا يكون عن المجتمع أو الذات فقط أو الوطن إنما يكون عن جميع الأشياء المحيطة بالمغترب وربما كانت إشارة ماركس إلى اغتراب الناتج عن منتجه كدليل على اغتراب الإنسان عن الأشياء، فإذا رفض الفرد القيم السائدة في مجتمعه وتنحى وانفصل عنه فإنه حتما يكون قد دخل دائرة اللاإنتماء على الأقل بالنسبة لدائرة المجتمع الذي يعيش فيه .

ويرى نبيل راغب بأن : " الاغتراب هو حالة نفسية تلازم الإنسان وتشعره بالألم والحزن سواء كان هذا الإنسان في وطنه وبين أهله، أو كان بعيدا عنه" [27]، في حين أن قيس النوري يرى بأن الاغتراب هو : " الانفصال عن المجتمع و ثقافته . "[28].

فالاغتراب المقصود في كلام نبيل راغب يبدو أنه الاغتراب عن الذات ما دام هو الحالة النفسية الملازمة للفرد في وطنه وخارجه فالمجتمع هنا يبدو وأنه غير مسؤول عن أزمة المغترب كما لا يعد طرفا أيضا في عملية الاغتراب، أما حديث النوري فإنه يشير إلى الاغتراب عن المجتمع ما دامت عملية الانفصال تكون عنه و عن ثقافته .

كما يرى الدكتور السيد علي شتا بأن :" الاغتراب عرض عام مركب من عدد من المواقف الموضوعية والذاتية التي تظهر من أوضاع اجتماعية وفنية، يصاحبها سلب معرفة الجماعة وحريتها بالقدر الذي تفقد معه القدرة على إنجاز الأهداف، والتنبؤ في صنع القرارات، ويجعل تكيف الشخصية والجماعة مغتربا . "[29] .

يتضح من كلام السيد علي شتا بأن الاغتراب هو سمة من سلبت حريته ومعرفته وهي الفكرة التي بلورها هيقل من خلال إشارته إلى الاغتراب المزدوج القائم على سلب الحرية والمعرفة الذي يصير صاحبه إلى عالم اللاقدرة عن إنجاز أي شيء أو اتخاذ أي قرار فتصبح ذاته وكأنها مشلولة .

وقد حاول الدكتور عبد الإله الصائغ جمع دلالات الاغتراب في هذا الحقل : " الاغتراب هو عشق التجديد، تغريب المتلقي، وإبقاؤه منفصلا حيث لا يحدث الاندماج الانفعالي بالنص الاغتراب عن الذات لحظة تشكيلها صورة للعالم، نقدا للآخر الذي يعيش خارج الجلد، يجعل شيئا ما ملكا للآخر، انعكاس لزيادة الوعي على السلوك والهيئة، شعور بخلل ما، نقص في المغترب يقابله اكتفاء أو زيادة في الآخر، أو زيادة في المغترب يقابلها نقص في الآخر، الاغتراب أسئلة غامضة بلا أجوبة، الاغتراب طغيان الحرية على منظومة استيعاب المبدع، فقدان الحرية نتيجة القناعات الفيزيقية أو الميتافيزيقية، الجمالية والميتا جمالية، خوف من الموت أو رغبة فيه، نهم للحياة أو زهد فيها، الاغتراب ...موت الصبر وانبعاث الحلم المستحيل، الحنين إلى الماضي، النص المغترب عمل شاذ كتبه شاذ لمجتمع شاذ، الغربة عن الطبيعة والأصحاب والذات جزء من تصاعد المبدع في معراج النمو، الاغتراب كامن لي كل الأزمنة والأمكنة والحضارات، ولكن تعبيراته مختلفة ... "[30] .

يمكننا القول بأن عبد الإله الصائغ قد جمع معظم دلالات الاغتراب – إن لم نقل كلها- وبناء على كل التعريفات التي أوردناها وهذا الحقل يتبين لنا بأن الاغتراب : هو حالة نفسية يشعر الإنسان بالانفصال من خلالها – عن أفراد المجتمع وعدم التواؤم والانسجام والتوافق معهم والشعور بالعزلة وسط الأفراد لعدم القدرة على التكيف معهم، أو الانفصال عن الذات .

ونختم الحديث عن مفهوم الاغتراب عن المحدثين بما جاء في أحد المعاجم الفلسفية الحديثة، إذ جاء في المعجم الفلسفي : "...فلسفيا يفيد الاغتراب عملية تحويل منتجات النشاط الإنساني و الاجتماعي إلى شيء مستقل عن الإنسان، ومتحكم فيه ... (31)

هذا التعريف يشير إلى اغتراب الناتج عن منتجه الإنسان .

هوامش الدراسة ومراجعها:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 5 ، 1997 ، ص17-20 .
2. مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار الفكر، بيروت، مج2، 1994، ص 179 -183 .
3. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998، ص 154 .
4. المنجد في اللغة والأعلام، منشورات دار المشرق، بيروت، ط 36، 1997،ص 547.
5. سميرة سلامي، المرجع السابق، ص 17 – 18.
6. المرجع نفسه، ص 18.
7. -أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق د. وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ط 2 ، ج 1 ، 1982 ، ص 80 .
8. المصدر نفسه ، ص 82 – 85.
9. المصدر نفسه ، ص 85 – 87 .
10. الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، تصحيح الشيخ طاهر الجزائري ، مطبعة المنار، مصر، ص 6.
11. سميرة سلامي، المرجع السابق، ص 23 – 24.
12. سورة غافر، الآية 39.
13. صحيح الإمام الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ج 2 ، ص 54 .
14. سميرة سلامي، المرجع السابق، ص 25.
15. المرجع نفسه ، ص 24 – 25.
16. -ويشير في قوله إلى الحديث الشريف : " بدأ الإسلام غريبا و سيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء، وقد سئل – ص – عن الغرباء هؤلاء فجاءت إجابته على روايات متعددة منها: أنهم المصلحون لما أفسد الناس، أنهم النزاع من القبائل، أنهم قوم قليل في ناس سوء كثر، ويتضح من كل الروايات بأن الغرباء هؤلاء هم فئة قليلة من أهل التقوى تمسكت بما جاء به الإسلام، فبدأ الإسلام غريبا لما كان عليه الناس من ضلالة و جاهلية جهلاء، أين عادوه وعارضوه، فأصبح المسلم غريبا في حيه وقبيلته، يؤذى ويعذب ويهاجر فكان غريبا حقا، لكن غربته كانت ممدوحة فهي غربة أهل الحق، وقد زالت هذه الغربة حين عز الإسلام فخلا من وصف الغربة و الاتصاف بها، و لكن حينما خرج بعضهم عن تعاليمه وظهرت البدع عاد الإسلام غريبا كما كان، وعاد معه المسلم كذلك حين وجد الشيطان مكانا له بين المسلمين، فافتنوا بالشهوات و الشبهات...(ينظر المرجع نفسه ص 25 – 29).
17. المرجع نفسه، ص 25.
18. المرجع نفسه، ص 30.
19. - العارفون هم المتصوفة، أصحاب المعرفة الذوقية، الذين يسعون للاتصال بالله وتحصل معرفتهم نتيجة لجهاد النفس وقطع العلائق بكل ما سوى الله، والفناء في محبته وعشقه، وقد تجتمع لهذه الفئة أنماط الاغتراب جميعها عن الوطن وعن الذات وعن العالم

الأرضي كله فهؤلاء مغتربون عن كل شيء سوى الله، وعلى الرغم من اغترابهم ذلك كله إلا أنهم لا يشعرون به، بل يجدون لذة ومتعة فيه ما بعدها لذة ولا متعة تنسيهم هموم الدنيا والوجود. (ينظر المرجع نفسه، ص، 30 – 31).

20. المرجع نفسه، ص 30 .
21. محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، دار المعارف، مصر، ط 2 ، 1986 ،ص 8.
22. عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر العربي الحديث في الجزائر، منشورات جامعة باتنة، 1997 ، ص 13 .
23. يوسف عز الدين، قديم لا يموت جديد لا يعيش، دار الإبداع الحديث للنشر والتوزيع، ص 249 .
24. أحلام الزعيم، أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد، دار العودة، بيروت، ط1، 1981، ص 67.
25. علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، مجلة علم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج27 ، ع2 ، 1998 ، ص 247.
26. صلاح أبو ناهية، (الاغتراب، المنهاج، التطوير) مفاهيم فلسطينية شائعة، مجلة التقويم والقياس النفسي والتربوي، ع6 ، 1995 ، ص173 .
27. نبيل راغب، مفهوم الاغتراب في الأدب، مجلة الفيصل، ع96 ، 1985 ، ص47 .
28. قيس النوري، الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا، مجلة عالم الفكر، ع1 ، 1979 ، ص18.
29. السيد علي شتا، المرجع السابق، ص322.
30. عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية، المركز الثقافي العربي، 1999 ، ص300 – 301 .
31. مراد وهب، المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة، القاهرة، ط4 ، 1998 ، ص80 .